المحاضرة الثانية :

- **الخطـــــــــــــابة**

أولا : مفهوم الخطابة :

أ-لغة : اشتق هذا اللفظ من الخطب وهو الأمر الجليل ،لأنه إنما يقام بالخطب في الأمور التي تجل وتعظم ، ولاسم منها خاطب (على وزن فاعل) ، وإذا جعل وصفا لازما قيل : خطيب (فهو أبلغ من خاطب)، فلا يسمى خطيبا إلا من غلبت عليه هذه الصفة وصارت صناعة له.

ب-اصطلاحا : يمكن أن نقتصر على تعريفين هما :

- ✓ هي فنّ مخاطبة الجماهير للتأثير عليهم واستمالتهم وإقناعهم ، فالخطابة هي فنّ يقوم بشكل أساسيّ على التحدّث بشكل شفهيّ مع المستمعين لإقناعهم واستمالتهم لما يُقال.
- ✓ هي صفة راسخة في نفس المتكلم يقتدر بها على التصرف في فنون القول لمحاول التأثير في نفوس السامعين وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم وإقناعهم.

يتضح من خلال التعريفين السابق ذكرهما أن الخاصية الأساسية في الخطابة هي الشفهية ، والخاصية الأخرى التي تمثل العصب المحرك لها هي استهداف الإقناع والتأثير في الجمهور.

ثانيا : أهمية الخطابة عند العرب :

تشكل الخطابة ذروة البلاغة في الخطاب النثري الشفهي عند العرب ،فقد اهتموا بهذا الفن إلى وقت مبكر ، ويعد الجاحظ أول من التفت إلى فن الخطابة وتوسع في بحثها ،فكتب عنها ووصف مقوماتها ، وذكر هيئة الخطباء واستعمالهم العصي للاتكاء عليها ،كما بين عيوبهم الخلقية والبيانية ، وكذا صفات الإجادة فيهم وشروط البلاغة عندهم ، إضافة إلى تقاسيم الخطب بداية وختاما وإيجازا وتطويلا واستشهادا وتمثلا بالشعر.

إضافة إلى ما سبق نجد العرب تتساءل عن أخطب الخطباء كما كانت تتساءل عن أشعر الشعراء ، ونجدهم يعقدون موازنات ومفاضلات بين الخطباء.

حظي الخطيب بعناية النقاد فشرطوا فيه شروطا أهمها :الثقافة الواسعة والموهبة الفطرية ومعرفة نفسية المتلقين او السامعين حتى يستطيع التأثير فيهم ويهتدي إلى سبل استمالتهم وإقناعهم ،ومن أجل أوصاف الخطباء :جهارة الصوت وسرعة البديهة والخلو من الاضطرابات النطقية وغيرها .

ثالثا :الخطابة عند العرب :النشأة والتطور :

أ- **في العصر الجاهلي** :كانت الخطابة مزدهرة في هذا العصر لكونها وسيلة للتحريض والأخذ بالثأر كما كانت سبيلا لإصلاح ذات البين أو إشاعة المفاخر والإشادة بالأنساب ،او تاتي في مناسبات الزواج والمصاهرات ،وأشهر الخطباء في هذا العصر :قس بن ساعدة الإيادي وعمرو بن كلثوم و هاشم بن عبد مناف، واكثم الصيفي .

تمتاز الخطابة الجاهلية بـ :قصر العبارة - مراعاة السجع - توشيحها ببعض الحكم والأمثال .

ب-في صدر الإسلام : نظرا لمقتضيات الدعوة إلى الدين الجديد تضاعفت الحاجة إلى فن الخطابة في هذا العصر ،وتبعا لذلك ازدهرت الخطابة ازدهارًا عظيمًا، إذ صارت الأداة القولية الفعالة في الدَّعوة، وفي تنظيم شؤون الدولة، كما ارتبطت الخطابة بتأدية الشعائر الإسلامية، ممثلة في خطبة الجمعة ويوم عرفة والعيدين وصلاة الاستسقاء والخروج إلى الجهاد، وقد كانت الخطابة الأداة المثلى في المناظرات لدى الجماعات الممثلة لشتى القبائل عند وفادتها على النبي، أو الخلفاء الراشدين من بعده. أما التطور الذي أصابها فيتمثل أساسا في تغير موضوعاتها؛ إذ تناولت الدعوةَ إلى الدين الجديد وتوطيد أركانه بعد أن كانت سابقًا في الدعوة إلى القبلية والعصبية، وتناولت أيضًا الدفاع عن الدين الجديد ودحض آراء المعادين والدعوة إلى التوحد والخطابة عند الاستخلاف والمبايعة، أما من الناحية الفنية فقد أخذت الخطبة تتكئ على أصول فنية بنائية جديدة ،إذ تبدأ باسم الله ثم بحمده والصلاة والسلام على نبيه. ويُستشهد فيها بالقرآن الكريم، وتقوم على المعاني الإسلامية. وقد سجلت لنا المصادر الكثير من نصوص الخطابة وأسماء الخطباء، بما يعكس هذه النهضة الكبيرة التي أحدثها الإسلام في هذا الفن.

وأول الخطباء كان النبي صلى الله عليه وسلم الذي ظهر خطيبا مفوها وبليغا أوتي جوامع الكلم ليبدأ فن الخطابة الإسلامية معه وقد سار الخلفاء على نهجه .

ج-في العصر الأموي :استمرت الخطابة في هذا العصر تؤدي دورها في الدعوة ،إضافة إلى ذلك فإن تطور الحياة الفكرية والأحداث السياسية والاجتماعية وظهور الأحزاب السياسية والفرق الدينية والكلامية وكثرة الفتن والاضطرابات، وتوسع الفتوحات الإسلامية ،كل ذلك جعل دواعي

الخطابة تتسع ،ويتسع نطاقها وتتشعب موضوعاتها ، وتتطور أساليبها ،وقد توافرت جملة من العوامل أوجدت أنواع جديدة من الخطابة أبرزها الخطابة السياسية التي ارتبطت بالصراع على الحكم بين الأحزاب السياسية(الخوارج –الشيعة- الزبيرون-الأمويون)، إذ كان لها الشأن الأول في استمالة الأنصار ومقارعة الخصوم ،وإرهاب الثائرين وتشجيع المناضلين وعرض حجج كل من الأحزاب المتصارعة ومناظرة الأحزاب

ويتصل بالخطب المذكورة نوع آخر يتمثل في خطب المتكلمين ،إذ عرف العصر الأموي ظهور عددا من الفرق الكلامية كالمرجئة والقدرية والمعتزلة والجبرية ، و لكل واحدة من هذه الفرق دعاتها الذين يروجون لعقائدها ويجادلون خصومها بأسلوب عقلي منطقي ، فارتقى بذلك فن المناظرة .

من جهة أخرى فإن حركة الفتح الإسلامي التي بلغت مداها الأقصى في عصر بني أمية أسهمت بقسط وافر في ازدهار الخطابة الحربية ،إذ تتطلب وجود خطباء يذكون شعور الحماسة والجهاد في نفوس المقاتلين .

وقد استمرت الخطب التي تؤدى ضمن الشعائر الدينة كخطب الجمع والأعياد ،لكن الجديد هو ظهور خطابة الزهد ،إذ ظهر في ذلك العصر جماعة من الزهاد صرفوا جهدهم إلى وعظ الناس وحضهم على العزوف عن التهالك على الدنيا ، وكان ظهور حركة الزهد ردا على انغماس عامة الناس في الشهوات ،لا سيما أولئك الذين أفاءت عليهم الفتوح أو التجارة المال الكثير ، وكان في مقدمة الوعاظ الحسن البصري بمواعظه التي بلغت الغاية في بلاغتها وقوة أثرها .

ولا يمكن في هذا السياق تجاوز الحديث عن ما يسمى بالخطابة الحفلية (الاجتماعية) التي كانت تلقى في المحافل والمجالس والأسواق لغرض من الأغراض المتصلة بالحياة الاجتماعية كالمفاخرة والتهنئة والتعزية والتكريم والشكوى وعقد النكاح وإصلاح ذات البين ونحو ذلك .وقد حظيت هذه الخطب بقسط وافر من النماء والارتقاء خلال العصر الأموي لتوفر دواعيها ، فكانت الوفود تقدم على الولاة والخلفاء ويقوم خطباؤها فيلقون الخطب بين يدي الوالي أو الخليفة في الغرض الذي قدموا لأجله ،وربما اجتمع في مجلس واحد خطباء من قبائل شتى فيجري بينهم التفاخر بقبائلهم والإشادة بمآثرها ،وقد شهد العصر الأموي استعار نار العصبية القبلية على نحو لم تعرفه العصور السابقة ،وأدى استعارها إلى نمو الشعر القبلي واتساع نطاقه من جانب (ازدهار النقائض) ،وكثرة المفاخرات القبلية من جانب آخر (ازدهار المفاخرات) .

خصائصها الفنية:

- ✓ ظلت خصائص الخطابة التي وجدت في خطب صدر الإسلام قائمة في الخطب الأموية، ومن ذلك استهلال الخطبة بذكر اسم الله وحمده والثناء عليه وإلا كانت **بتراء** وتوشيحها بآي من القرآن الكريم وإلا كانت **شوهاء**.
- ✓ تأثرت الخطابة بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف واقتبست منهما.
- ✓ تضمنت بعض الأمثال والحكم وقد يتمثل الخطيب بشيء من الشعر أو الرجز.
- ✓ العناية بتجويد الألفاظ والعبارات وتنميقها وتنسيق الجمل وترتيب أقسامها ،وإحكام التسلسل فيها ،وتظهر هذه السمات على نحو جلي في خطبة زياد التي قالها يوم قدم البصرة.
- ✓ مالت كثير من خطب هذا العصر نحو استخدام السجع .
- ✓ طغى على جل خطب الخلفاء الأمويين أو ولاتهم معاني التهديد والوعيد كخطب الحجاج بن يوسف وزياد بن أبيه ،أما خطب القبائل فيطغى عليها الفخر.
- ✓ حين ظهرت الفرق الكلامية برزت الحاجة إلى تعليم أتباع كل فرقة أصول الخطابة ووسائل الإقناع وتدريبهم على محاجة خصومهم بالبراهين والأدلة العقلية، وظهر صدى ذلك في خطبهم ومناظراتهم من حيث خصب الأفكار وتنسيقها وعمقها واستنادها إلى المنطق وأصول الجدل.

وفي الوسع القول إن فن الخطابة لم يبلغ في أي عصر من العصور ما بلغه في العصر الأموي من النماء والنضج.

د-في العصر العباسي :نلحظ أن الخطابة في هذا العصر مرت بمرحلتين :

<u>د1-المرحلة الأولى :</u> واجه العباسيون في بداية خلافتهم مقاومة كبيرة ،في ظل هذه الظروف كان طبيعيا أن تواصل الخطابة ازدهارها ،لأن العباسيين كانوا "بحاجة لتثبيت مُلكهم إلى آلة دعائية ضخمة تنتشر بين القبائل والتجمعات السكانية في أرجاء الدولة الإسلامية الواسعة، ولم تكن هناك وسيلة أفضل من الخطابة، وليس هناك دعاة أفضل من الخطباء"، فكانت الخطابة سلاحا قويا استخدمه كل من الدولة وخصومها على السواء. كما احتاجتها الوفود على خلفاء بني العباس وولاتهم لعرض مطالبهم أو لغرض من الأغراض الاجتماعية ، بناء على ذلك فقد كانت للخطابة انتشار واسع مع بداية العصر العباسي واستمر هذا الازدهار لما يربو عن قرن ،وهذا ما صرح به أحد الباحثين فقال :"كان للخَطابة في صدر هذا العصر مكانة في النفوس، وسلطان على القلوب، لاعتماد القوم عليها في توطيد الملك، وتحميس الجند، واستقبال الوفود، وكان للخلفاء الأولين

ودعاتهم فيها الشأن الرفيع والشأو البعيد."

د2-المرحلة الثانية : لاحظ الدارسون أن الخطابة تراجعت بشكل واضح منذ منتصف القرن الثالث الهجري ، ويعود سبب تراجعها إلى عدة أمور، من أهمها:

- ✓ بعد استقرار الدولة وبسطها سيطرتها التامة على الأمور لم تعد في حاجة للدعاية كما سبق ذكره، وهو ما وضحه الدكتور محمد أبو زهرة بقوله :"الدواعي إلى القول قد ضعفت ،فقد ثبتت دعائم الدولة وقامت أركانها ...فذهب بسبب ذلك السكون أعظم دواعي الخطابة ،وإذا ضعف الداعي إلى الخطابة وقلت الحاجة إليها ضعف أمرها وهان شأنها ".
- ✓ قعود الخلفاء عن الخَطابة، واستهانتهم بها، فتبعهم الناس في هذا الأمر.
- ✓ تراجع الفصاحة وضعف اللسان العربي بسبب ابتعاد مركز الدولة عن الجزيرة العربية، واختلاط العرب بالأعاجم الذين ما لبثوا أن أصبحوا أغلبية، إذ" استعجم المسلمون ومَلك العِيّ ألسنة الوعاظ فلم يستطيعوا إنشاء الخطب في الموضوعات المختلفة، فعمدوا إلى استظهار خطب أسلافهم كابن نباته المصري، وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها ولا علم بمغزاها، ودرجوا على هذه الحال المخزية تلك القرون الطويلة" حينما سرى تيار العجمة إلى كل الجهات، وانتقلت عدواه إلى الخاصة والعامة، فسرى تيار الأتراك السلاجقة إلى اللسان والبيان فلم يترك شيئًا إلا وأعمه ولا ذوقًا إلا أفسده؛ هذا الضعف كان في أواخر عهد الدولة العباسية
- ✓ انتشار الكتابة وحلول الرسائل والمنشورات محل الخطب بعد أن أصبحت الدولة تعتمد عليها في تعاملها الرسمي بشكل أساسي.
- ✓ غلبة العنصر غير العربي على الوظائف والمناصب، وقد كانوا مميزين في الكتابة وضعفاء في الخطابة.

خصائصها :

- ✓ تقترب الخطابة العباسية في المرحلة الأولى من الخطابة الأموية وتضارعها في الأسلوب واللغة والألفاظ وحتى المعاني بسبب تشابه ظروف الدولتين وتشابه الدواعي الخطابية في كلتيهما .
- ✓ زيادة التفنن في المعاني والحرص على الدقيق منها والغوص وراء عميقها بسبب حركة الترجمة فاقتبسوا من حكم الفرس والهنود وأمثالهم وزينوا بها خطبهم .

- ✓ كثرة المعاني الدينية لكون الصراع بين العباسيين وغيرهم كان دينيا بالأساس .
- ✓ الاستشهاد بالقرآن الكريم والاقتباس من آياته ، وكذلك الأمر بالنسبة للحديث الشريف و الشعر .
- ✓ المبالغة في إحكام بناء الخطبة وتنسيق أجزائها وفقراتها .
- ✓ تراوحت خطب العصر العباسي بين الإيجاز والتطويل حسب المقامات وحسب الظروف ،لكنهم كانوا إلى الطول أميل .

مراجع المحاضرة :

الجاحظ : البيان والتبيين .

إبراهيم علي أبو الخشب : تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، دار الفكر العربي، القاهرة .

ينظر حسن بن جابر المدري الفيفي: نبذة مختصرة عن: تطور النثر العربي القديم (نثرقديم)، موقع الكتروني : https://faculty.ksu.edu.sa/ar/halfaify/blog/276734

قدامة بن جعفر : نقد النثر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، دط ، 1980.

ينظر عبد الجليل عبده شلبي : الخطابة وإعداد الخطيب ، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1981.

محمد أبو زهرة : الخطابة أصولها ،تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مطبعة العلوم ،ط1، 1934.

حنا الفاخوري : تاريخ الأدب العربي، المكتبة البولسية ، ط12، 1987 .

القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ،تحقيق ابراهيم الابياري، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، ط2، 1980.

ابن كثير الدمشقي : البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 1990.